الفداء

بقلم: بها سكاران

إن الأحجى للمرء، مهما يكن فخوراً ببلده، ألا يغالي في الثقة بمستقبل هذا البلد.. ففي خلال مائة سنة قادمة قد تقوم المدن وتزدهر على أرض هي الآن صحراء جرداء، بينما المدن المزدهرة الآن قد يعفى عليها الزمن وتغطيها الحجارة والتراب، وتصبح أثراً بعد عين!

إن البلد قد يخربها حدوث زلزال، أو تغيير نهر لمجراه، أو يخربها ملك فاسد، أو يتألب عليها الأعداء فتنتهي إلى الخراب والدمار!

ولكن إذا اتفق لك أن تقوم بجولة في منطقة «مالابار» على الضفة الغربية للهند، ورأيت حقولها اليانعة مكتسية بالسندس الأخضر تحت قدميك، وأشجار جوز الهند الفارعة موزعة في أطرافها بصورة لا يحيط بجمالها الخيال، بينما تجد أنهارها مندفعة في انحدارها إلى النهر كأن بها ظمأ إليه، أو شوقًا إلى لقائه – إذا اتفق لك ذلك وقلت عندئذ لنفسك: لابد أن أرى المدينة الرئيسية لهذه المنطقة البديعة، ثم لحقت بالقطار الذاهب إليها.. إلى «كوزهي كود» فلن تجد أحدًا من أهلها هناك يقرك على وجهة نظرك حين تذكر أمامه حكمتك، بل سيرد عليك قائلًا:

– ربما تكون هذه النظرية صحيحة، تصدق على البلاد الأخرى، أما كوزهي كود، كوزهي كود بالذات، فلا يمكن أن تموت.. لا يمكن!

ذلك لأن لهذا البلد نفسه قصة عجيبة جعلت لها هذه المناعة التي يؤمن بها أهلها.. وإذا مرت التجربة بشيء فعركته وعصرته ثم احتمل التجربة وعاد إلى الحياة من جديد فلن يتعرض لخطر الموات مرة أخرى.. تمامًا كما يحدث للإنسان ذاته.. إذا اجتاز الموت فإنه يخلد، ولا يتعرض للموت مرة ثانية..

فإذا كان بك فضول لمعرفة سر هذا البلد، فالأمر عندهم معروف مشهور، كل فرد منهم يسره أن يسرد عليك القصة.

إنه يندمج في دوره وهو يروي لك الخبر، وتلتمع عيناه من الحماس وهو يتخيل نفسه في الجو الذي حدثت فيه وقائع القصة، منذ نحو ثلاثمائة عام!

***

في ذلك الوقت كان هذا البلد – كما هو الآن – مركزاً عظيماًللتجارة، وعاصمة صغيرة تفيض بشراً وهناءة للقطر كله، الذي كان يحكمه ملك جليل كبير القلب.. وكان التجار العرب يفدون إليه في جماعات كبيرة للمتاجرة في الحرير والتوابل، والحلي المعدنية واللوازم المنزلية.. وكان أبناء البلد مغتبطين هانئين، يتكسبون ويحسنون الاقتصاد، وكانت البلد منتعشة دائماً، مشرقة في كل وقت.. وكان الخير وافراً.. السمك الكثير على طول الشاطيء، والذهب والفضة يتدفقان إلى

البلاد عن طريق التجارة.. لم يكن هناك شيء يضايق ملك البلاد، أو يقلق باله، أو ينغص عليه عيشه.

ومع ذلك فإن الملك، الذي تقدمت به السن ورقد في فراشه بقصره في كوزهي كود مريضًا، كان حزينًا!

لم يكن حزينًا لأنه أحس بأنه سيلاقي الموت، فقد كان شجاعاً لا يهاب الردى، بل كان حزنه من أجل ابنه الوحيد.. فقد بذل أقصى جهده في تدريبه وتبصيره بتبعات الملك، وتعليمه على أيدي أساتذة أكفاء، ولكنه في النهاية فشل في إنقاذ ابنه.

إن الأمير رافي فارمان كان له أصدقاء من إخوان السوء.. وكانت بطانته من جماعة المنافقين والمتلافين تعجل بضياعه وفساده.. وساعدت الملك أيضًا في إفساده بتهاونها وترفقها به.. وعندما كانت على فراش الموت أخذت على الملك عهداً بأن يجعل ابنهما على الدوام سعيداً..

لقد بقي سعيدًا حقاً، ولكن من طريق لا يليق أن يسلكه أمير سيصبح بعد قليل ملكاً خطير الشأن يحكم البلاد!

وإذ فات زمن الصبا الذي كان ينبغي فيه تقويم اعوجاجه، فقد أصبح علاجه بعد ذلك متعذراً، لأنه شب عن الطوق، وفي كل يوم كانت الهمسات تنتشر في أبهاء القصر عن المصير المظلم الذي ينتظر عهد الأمير في كوزهي كود وما حولها.. حتى الملك جعل يتساءل مع نفسه:

ترى ماذا سيحدث لبلادي بعد أن أتركها وديعة في يد ملك طائش ليحكمها؟ هل سيأتي الوقت الذي يلعن فيه شعبي الساعة التي ورث فيها ابني العرش؟!

***

وبعد أسبوع مات الملك، وجلس الأمير على عرش كوزهي كود.

وسرعان ما نسي الملك الجديد العهد الذي قطعه على نفسه أمام أبيه، فلم يلبث محزونًا سوى بضعة أيام، عاد بعدها دم الشباب الحار يشتعل في عروقه وعاد هو إلى سابق عهده!

وصار القصر مرتعًا للمتع الدنيئة.. وأبعد عنه الخدم القدامى الذين تبرموا بمسلك الملك وجيء بالخدم الذين كانوا يسخرون لمآربه عندما كان أميراً، ولم يك «رافي» يصغي لغير خلانه المقربين، وكان يسفه آراء المعارضين ويمتهنهم وينكل بهم مع أنهم وزراء أبيه!.. وأهمل واجباته كملك، أو عهد بها إلى بعض الأفراد المتزلفين، من حاشيته، وجعل يتمادى في الانغماس في ملذاته.

وأسف الشعب ووجد مبرراً لأسفه.. أن الملك الحازم الحكيم قد ذهب، تاركًا ابنه الفاسق يتسلط عليهم.. وعندما أوشكت خزانة مخصصاته على النفاد، أرغمهم على أداء ضرائب إضافية.. وصار أصحاب الغنى أو العقار والحقول يرغمون على تقديم جانب من ثرواتهم لخزانة الملك، أما الذين يعارضون فكانوا يلقى بهم في السجن فجأة،

وتصادر أملاكهم!.. وكان الملك لا يتورع كلما علم بأمر فتاة حسناء يلمحها أحد رجاله على مقربة من قصره، لا يتورع عن أن يلتقطها ويضمها إلى جواريه، مخلفًا الحزن والعار والفجيعة في بيت ذويها!

وفي خلال عام نفدت الكنوز من خزانة الملك، ولم تعد الأرض تغل له كل ما يطلبه، واستسلم للمشورة الفاسدة من حاشيته وهو يتلذذ بحثاً عن المال، فتحول إلى التجار العرب يطالبهم بالأموال..

لقد أمرهم بأن يؤدوا إليه أحمالاً من الفضة، فلما لم يصدعوا بالأمر، أعلنهم بأنه لن يقبل إذن أن يأذن لهم بالاتجار مع الشعب في مملكته.

وفوجئ التجار بالأمر الملكي، وأسرعوا عند الليل فعقدوا مؤتمراً ليتدارسوا أمرهم.. وقال بعضهم إنه يرى أن يقدم التجار للملك ما يريده، ولو أن هذا معناه أن يذهب من أيديهم أكثر ما يربحونه في العام كله.. ولكن تغلب الرأي القائل برفض الخضوع لمطالب الملك.. وقال قائلهم إن الملك متى ذاق طعم هذه الغنيمة الباردة السمينة لا يلبث أن يرهقهم بطلب المزيد، وأن من الأفضل أن يخاطروا بالبحث عن مكان آخر للاتجار، على أن يستسلموا للملك ويتعرضوا للإفلاس.

وما أن نشر الظلام ظلاله على ميدنة كوزهي كود حتى أقلع العرب بسفنهم، واتجهوا إلى الجنوب!

وكان أول نبأ يتلقه الملك في اليوم التالي هو إبحار التجار العرب..

ولم يصدم هذا النبأ الملك وحده، بل صدم أولئك الوزراء الذين كانوا يرقبون بلادهم وهي تجد الغنى والرخاء من تجارة العرب في عهد والده.. وتجمعوا في موكب كبير وأتوا إليه يحتجون ويشيؤون إلى تصرفه الأحمق..

وصرف الملك هؤلاء الثائرين.. ولكن كلماتهم استقرت في ذهنه.. إن ضميره قد أخذ يؤنبه تأنيبًا قاسياً.. وتذكر وعوده وعهوده في حضرة والده، وأحلام المجد والسؤدد التي حلمت بها أمه عندما كانت على قيد الحياة، لقد خدعهما إذن وخانهما كما خان شعبه وخدعه! هل مضى الوقت المناسب للإنقاذ؟ ألا يمكن عمل شيء يجعله في الوضع الصحيح أمام شعبه؟

وعاصمة الملك، ماذا سيحدث لها؟ هل تذهب أمجاد هذه المملكة العظيمة إلى غير رجعة، ويحل الفقر والذل والهوان بسبب جرائم فرد واحد؟

***

ظل رافي طول يومه يفكر وينحي باللائمة على نفسه وهو مهموم محزون، وعندما حاول بطانة السوء أن تسري عنه طردهم من القصر.

وانتصب واقفًا، وفكر لأول مرة في أن يذهب إلى المعبد، ويقدم صلاته وندمه.. لقد زار والده من قبل المعبد وتضرع للآلهة لكشمي، ومن وقتئذ عم مملكته الرخاء والهناء..

كان المعبد يقوم عند حافة البحر، وعندما أخذ رافي طريقه إليه، كان يصافح أذنيه صوت تكسر الأمواج فوق السلم الذي يفضي من المعبد إلى الماء.. وكان إيقاعها الرتيب يبعث الرعد والخوف في قلب الملك.. لقد كانت تذكره بالقوانين السماوية وأحكام القدر التي لا يستطيع أحد أن ينجو منها!

وكان الكاهن قد انصرف إلى بيته بعد قيامع بشعائر العبادة في يومه، وبقي المعبد ليس فيه أحد.

واتجه رافي إلى ماء البحر ليغتسل ويتوضأ قبل أن يرفع صلاته، وقبل أن يخطو بضع خطوات، فوجئ برؤية غادة رائعة الحسن تجلس فوق صخرة عند حافة البحر، فتساءل مرتاعاً:

– من هذه؟

وأجابت الحورية

– أوه.. لا أحد..

واقترب رافي وحدق في وجهها.. فإذا جمالها الساحر يفتن لبه ويبهر ناظريه.. هل يمكن أن يكون له مثل هذه الفتنة والسحر والحسن؟.. هل هي حورية؟.. هل هي إلاهة؟

وعاد يسألها:

– ماذا تصنعين هنا؟

فقالت:

– لا شيء.. إنني ذاهبة.. إنني ذاهبة..

– إلى أين؟

وتأوهت وهي تجيب:

– في رحلة بعيدة، جد بعيدة..

وعاد يتأمل عن كثب جمالها الذي يفوق كل جمال، ويفكر في صورتها وبديع تكوينها وصوتها السماوي، حتى استضاء ذهنه بالإلهام، وأدرك أنه أمام معجزة علوية لا عهد لإنسان بها من قبل!

وفي تلطف وضراعة راح يسألها:

– ولماذا أنت ذاهبة؟

– لم أعد أطيق هذا المكان أكثر من هذا!..

– لماذا؟

– ما أكثر أسئلتك! إنني لا أريد هذا المكان لأني لا أطيق ذلك الغبي الذي يجلس على العرش!

– ولكنه لا يزال صغيرًا..

– ومع ذلك فهو كبير إلى الحد الذي يستحل معه أن يبعثر ما في الخزانة، ويحيل القصر إلى مباءة دنيئة!

وناشدها قائلًا:

– ألا ترجعين عن عزمك؟

– كلا!

– أرجوك.. أرجوك أن تبقي..

– لا لا، لقد صممت..

– ألا يوجد شيء يجعلك تتحولين عن رأيك؟

– لا شيء.. لقد صبرت بما فيه الكفاية!

وأخذ يفكر في الأمر.. ماذا يمكن أن يحملها على البقاء! إنها إذا لم تفعل فإنه لا يستطيع أن يواجه النتائج.. هذه البلاد الجميلة التي تردت بإهماله في الفقر ودنت من الهاوية.. هذه البلاد التي لا يستطيع أن ينساها ولا ينسى فضلها عليه، ماذا تكون نهايتها؟ وعاصمة البلاد التي شوه جمالها، كيف يسكت على ما تعانيه؟ لا، لا.. ينبغي إبقاء هذه المنقذة.. لابد من إبقائها بأي ثمن.. بأي تضحية.. إن حياته لم تعد تساوي شيئاً.. إنه لا يستحق الحياة.. إن وجوده يجلب لشعبه من اللعنة أكثر مما يجلب الخير.. إن أي فرد سواه يمكن أن يكون ملكاً عليهم أفضل منه.. ثم إنه إذا افتدى وطنه بهذه التضحية وإن كانت تكلفه حياته، وعرف الشعب في الوقت المناسب ما صنعه لأجلهم، فقد يعفون عنه ويسامحونه.